بحوث في اللغة العربية: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ١٢ (ربيع وصيف ١٤٣٦هـ. ق/ ١٣٩٤ هـ. ش)، ص ٧٧ ـ ٩٤

ظاهرة القلب في اللغة العربية[١]

مرضيه قربان‌خاني ❖
سيدمحمدرضا ابن‌الرسول ❖❖

الملخص

يُعدّ القلب من الظواهر اللغوية الشائعة في اللغة العربية. وهو ظاهرة لم تختص بالشعر العربي القديم فحسب، بل اتسع نطاقها بحيث يمكننا مشاهدة نماذج منها في القرآن الكريم. بما أن لهذه الظاهرة نطاقا واسعا في الأدب العربي وأيضا بسبب ماهيتها التي تؤدي أحيانا إلى انتقال أركان الكلام من مكان إلى مكان آخر في الجملة وأحيانا آخر توجب التغييرَ في إعراب الكلمات، دراسة هذه الظاهرة بجميع أبعادها وجوانبها اللغوية تصون المتلّقي عن الوقوع في الأخطاء وتُعينها في تحسين عملية قراءة النصوص وفهمها.

تهدف هذه الورقة البحثية وفق المنهج الوصفي التحليلي إلى دراسة ظاهرة القلب في اللغة العربية والإتيان بأمثلتها في الشعر العربي ونثره وكذلك الآيات المتضمّنة لها في القرآن الكريم، لتسلّط الضوء على هذه الظاهرة بخصائصها اللغوية وأنواعها المختلفة في اللغة العربية وللردّ على عدة أسئلة منها: مدى أهمية القلب وأنواعه في علم المعاني، ودواعي القلب، وجواز الاعتراف بالقلب بوصفه أسلوبا من أساليب البلاغة العربية أو عدم جوازه وغير ذلك. وقد حقّقت الدراسة عدة نتائج تؤكد لنا أهمية ظاهرة القلب غير المستنكرة ـ بوصفها أسلوبا بلاغيا ـ في عملية قراءة النصوص، منها: أنه من أهم دواعي استعمال القلب في اللغة تحسين الكلام لفظيا ومعنويا ومخالفة اللغة المعيارية وخلق الجوّ الشعري، وأن الاعتراف بوقوع ظاهرة القلب في اللغة العربية يصوننا عن التمسك بمختلف التأويلات والتقديرات البعيدة المتكلّفة عند مواجهة القلب في النصوص ويساعدنا في فهمها.

الكلمات المفتاحية: القلب، النحو، البلاغة، التقديم والتأخير، الإسناد المجازي.

١ـ تاريخ التسلم: ١٣٩٣/١٠/٢١هـ. ش ؛ تاريخ القبول: ١٣٩٤/٤/٨هـ. ش.

❖ طالبة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان. Email: marziehghorbankhani@yahoo.com
❖❖ أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بجامعة إصفهان. Email: ibnorrasool@ yahoo.com

١ـ المقدمة

بما أن اللغة ظاهرة بشرية فهي لا تزال تتعرّض للتغيّر والتحوّل. والتغيّر والتحوّل هذان، يمكن مشاهدتهما في الشعر الأدبي ونثره خاصة؛ لأن الشعراء والكتّاب أحياناً يتجاوزون القواعد اللغوية بشتّى الدواعي. والقلب إحدى الظواهر التي يمكن اعتبارها نوعاً من العدول عن القواعد المتعارفة للغة. منشأ الاعتراف بهذه الظاهرة في اللغة هو فكرة «الأصل والفرع» التي يشير إليها شبايك أحسن الإشارة بقوله: «**والقول بالقلب منشأه تحكيم فكرة "الأصل والفرع"، فالكلمة المفردة تُردّ إلى أصل يعرف به بناؤها، والجملة إلى نظامها المألوف في العربية من خلال العدول عن ذلك الأصل، ويصبح كلّ عدول عنه فرعاً عليها، يخضع له ويفسّر به ويُشدّ إليه، ولا يعدّ الفرع أصلاً قائماً بذاته وإلا صارت اللغة لا ضابط لها ولا نظام يحكمها**» (شبايك، ١٤١٩هـ، ص ١١٩). وهو أيضاً يعتبر هذه الظاهرة سنّة سنّها العرب فيما أُثِر عنهم من النثر و النظم، إذ يقول: «**من سنن العرب في كلامها القلب، يكون في الكلمة ويكون في الجملة (التركيب)، وهو ظاهرة أسلوبية نزل بها القرآن الكريم**» (المصدر نفسه، ص ٥).

والقلب لغةً «**تحويل الشيء عن وجهه**» (ابن منظور، د.ت، مادة «قلب»)، وفي اصطلاح علم البيان هو أن يُجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه على وجه يثبت حكم كلّ منهما للآخر، نحو: «عَرَضتُ الناقةَ على الحوضِ» (التفتازاني، ١٣٧٧، ص ١٢٦). والجدير بالذكر أن «القلب» له معان اصطلاحية في مختلف علوم اللغة العربية من اللغة والصرف والنحو والبلاغة بفروعها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)، وإن يختلف مدلولها في كلّ واحد من هذه العلوم المذكورة. وقد أشير إلى ظاهرة القلب في كتب النحو والبلاغة القديمة الهامة من أمثال *مغني اللبيب ومفتاح العلوم والإيضاح في علوم البلاغة وتلخيص المفتاح ومختصر المعاني* وغيرها من الكتب، ولكن قلّما نرى في هذه الكتب كلاما عن دلالات ظاهرة القلب.

من هذا المنطلق، تتناول هذه الدراسة ظاهرة القلب في كلّ واحد من العلوم المذكورة مستفيدة من الآراء المتواجدة في أمهات الكتب العربية التي تختص بذاك العلم ومحاولة الإتيان بنماذج منها في العلم نفسه. وبما أن القلب يُوجب تغيير أركان الجملة وانتقال بعضها مكان بعض، وكذلك هو نوع من التجاوز عن اللغة المعيارية، كلّ هذا أحياناً يؤدي إلى التباسه بمصطلحات أخرى مشابهة له، كالتقديم والتأخير والانزياح والإسناد المجازي، على هذا الأساس تهدف هذه المقالة إلى دراسة العلاقة القائمة بين مصطلح القلب والمصطلحات الأخرى المشابهة له.

بناءً على ما ذكر، يمكن تلخيص ما تقصد هذه الدراسة أن تبحث عنه من الأسئلة فيما يلي:

ـ القلب ومدلوله في مختلف علوم اللغة العربية؛

ـ مدى أهمية القلب وأنواعه في علم المعاني؛

ـ نماذج القلب في القرآن الكريم والشعر العربي القديم ونثره؛

ـ علاقة القلب بالمصطلحات المشابهة له؛

ـ دواعي القلب؛

ـ اعتبار القلب ظاهرة لغوية مبنيّة على القياس أو السماع؛

ـ جواز الاعتراف بالقلب بوصفه أسلوباً من أساليب البلاغة العربية أو عدم جوازه؛

ـ علاقة القلب بفصاحة الكلام.

وبناء على ذلك جعلنا المقالة على ستة فروع وهي: القلب ومدلوله في مختلف علوم اللغة العربية، وقد درسنا فيه هذه الظاهرة في مختلف العلوم اللغوية، كعلم اللغة والصرف والنحو والبلاغة، مع ذكر نماذج لها في كل واحد من هذه العلوم لتبيين مدلولها في العلوم هذه، ثمّ شرحنا الفرق بين القلب والمصطلحات المشابهة له، كالتقديم والتأخير والإسناد المجازي والانزياح والتشبيه المقلوب، ثمّ تطرّقنا إلى دواعي استعمال هذه الظاهرة في اللغة العربية، وبعد ذلك درسنا كوْنَ القلبِ مقيساً أم لا وكذلك أجبنا عن هذا السؤال: هل يعتبر القلب من أساليب البلاغة؟ ثمّ تطرقنا إلى دراسة ظاهرة القلب وعيوب فصاحة الكلام.

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة لهذا الموضوع يجدر بنا القول إن القلب بسبب مدى استعماله في اللغة العربية لفت انتباه النحاة والبلاغيين الذين درسوا أحياناً هذا الموضوع في كتبهم بإشارات عابرة، وأحياناً أخرى خصّصوا له باباً مجزّأً. ومن جملة هذه الكتب *الصاحبي في فقه اللغة العربية* لأحمد بن فارس (١٤١٨هـ، ص ١٥٣)، *وفقه اللغة* للثعالبي (١٤٢٠هـ، ص ٤١٨) *والخصائص* لابن جني (د.ت، ج ٢، ص ٦٩) *ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب* لابن هشام (١٣٨٦هـ. ش، ج ٢، ص ٣٥٠). وفي العصر الراهن يمكننا الإشارة إلى بعض الكتب في هذا الموضوع مثل *ظاهرة القلب المكاني في العربية* لعبد الفتاح الحموز (١٤٠٦هـ)، *والقلب عند البلاغيين والنحاة العرب* لعيد محمد شبايك (١٤١٩هـ)، *والقلب البلاغي في القرآن الكريم بين المُجيزين والمانعين* لمصطفى السيد جبر (٢٠٠٢م)، وبعض المقالات كمقالة «القلب المكاني» لمحمد العُمري في مجلة جامعة أم القرى (١٤١٤هـ)، ومقالة «جماليات القلب في البلاغة العربية» لصالح بن سعيد الزهراني في مجلة جامعة الإمام (١٤١٨هـ). ولكن تختلف هذه الدراسة عما سبقها من البحوث والدراسات من أوجه وهي أنّ ما أُلّف حتى الآن من الكتب والمقالات والأبحاث اللغوية في مجال بحثنا هذا، لم يتطرق إلى تحليل نماذج القلب وتقسيمها وفق المنهجية العلمية مبيّنا أنواع المقلوب والمقلوب إليه، كما أنه لم يبيّن دواعي القلب في النماذج التي قدّمها، والفارق الأخير بينهما يرجع إلى عدم تبيين علاقة القلب بالمصطلحات المشابهة له، كالتقديم والتأخير والإسناد المجازي والتشخيص والانزياح.

وأخيراً نرجو أن تكشف هذه الدراسة آفاقاً جديدة في الموضوع وتضعها بين يدي القرّاء الأعزاء في ضوء ما توصّلت إليه الدراسات السابقة من نتائج إضافة إلى إكمالها والتطرّق إلى الموضوعات التي لم يتم الإشارة إليها سابقاً.

٢. القلب ومدلوله في مختلف علوم اللغة العربية

ذكرنا آنفاً أن مصطلح القلب لفت انتباه الدارسين في مختلف مستويات اللغة العربية من اللغة والصرف والنحو والمعنى. والجدير بالذكر أن الهدف الرئيس لهذا البحث هو دراسة القلب في مستوى علم المعاني. بناءً على ذلك واحترازاً عن إطالة الكلام، نكتفي في سائر المستويات بتعريف مصطلح القلب وذكر نماذج منه فقط ليتعرّف عليه القارئ ويفرّق بين أنواعه.

٢ـ ١. القلب في الكلمات (القلب المكاني)

والمصطلح الشائع لظاهرة القلب في مستوى اللغة هو «القلب المكاني» والمراد منه: «**تصيير حرف مكان حرف بالتقديم والتأخير**» (أبوحيان الأندلسي، ١٤١٨هـ، ج ١، ص ٣٣٤). والقلب المكاني على قسمين واستخدامه في كلّ قِسم ليس قياسياً بل سماعي ونرى الجنديّ أشار إلى هذا بقوله: «**وليس للقلب [المكاني] صورة محدّدة بل تارةً يكون بتقديم اللام على العين أو بتقديم العين على الفاء أو بتأخير الفاء عن اللام**» (الجندي، ١٩٨٣، ص ٦٤٧). هذان القسمان هما:

أ) القلب اللغوي (الذي يسمّى أحياناً القلب اللفظي أو القلب الاشتقاقي)، كالقلب في «جبذ وجذب». يشير الجندي إلى دواعي هذا النوع من القلب حيث يقول: «**يرجع سبب القلب إلى التخفيف اللفظي ... كما يحدث القلب من أخطاء الأجيال كأن يخطئ الطفل في ترتيب كلمة ولا يجد من يصحّح له خطأه فتصبح الكلمة ذات صورة جديدة في لهجته ويجد في لغة الجيل الناشئ أموراً لم تكن مألوفة في لغة السلف وحلّ الخطأ الجديد محلّ الصواب القديم ... وقد يكون من أسبابه التوهّم السمعي فقد تسمع "حفر" فتتوهّم أنك سمعت "فحر" ... ويمكن أن نضيف عاملاً آخر في سبب القلب وهو احتمال خطأ الرواة في النقل**» (المصدر نفسه، ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥)؛

ب) قسم آخر وهو غير ما ذُكر في القسم الأول، كقلب «رَعملي في لَعمري»، ومنشأ هذا القلب ـ كما يبدو ـ سبق اللسان.

ومن النماذج التي وردت في الكتب اللغوية للقلب اللغوي كلمات «جَبذ وجَذب» و«بكَل ولَبك» (السيوطي، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٣٦٧). وهناك خلاف بين علماء اللغة والنحاة حول هذا النوع من القلب الذي يبيّنه صاحب *الراموز* هكذا: «**أما علماء اللغة فيرون أن تقديم بعض حروف الكلمة على بعض من قبيل القلب ولا علاقة له باختلاف اللهجات بمعنى أنه يمكن أن تنطق قبيلة واحدة أو العرب جميعا الأصلَ والمقلوبَ معاً. يقول ابن دريد [في] باب الحروف التي قلبت وزعم قوم من النحويين أنها لغات ثم جعل يسرد الأمثلة الكثيرة فاحتسب أن جبذ وجذب وما أطيبه وأيطبه وصاقعة وصاعقة واضمحلّ وامضحلّ ولبكت الشيء وبكلته وسحاب مكفهر ومكرهف: كلُّ هذا من قبيل القلب وليس من اختلاف اللغات. أما النحويون فيرون أن تقديم بعض حروف الكلمة على بعض يجب أن لا يبتّ فيه إلا بالنظر إلى شيء وهو أنه إذا أمكن جعل إحدى الكلمتين أصلاً والأخرى فرعاً بأن كانت إحداهما أكثر تصرفاً من الأخرى وأكثر استعمالاً فهذا يعتبر من قبيل القلب المكاني وإذا لم يمكن ذلك كانا جميعا أصلين ليس أحدهما مقلوباً من الآخر**» (حسن، ١٩٨٦م، ص ٤٣).

ويقول الجندي بعد الإشارة إلى هذا النوع من القلب في العربية إنه لا يختص باللهجات فحسب بل له نطاق أوسع حيث يقول: «**وكما وجدنا هذا القلب في لهجات القبائل ـ كما سبق ـ يمكن أن نجد صداه بين العربية وأخواتها [يقصد الأكدية والعبرية والآرامية والحبشية]، كما نسمع صداه كلّ يوم في لهجاتنا العربية الحديثة**» (الجندي، ١٩٨٣م، ص ٦٥٥ـ٦٥٦).

وما يجدر ذكره أن هذا النوع من القلب لا يوجب أيَّ تغيير في معنى الكلمات وهو لا يخضع لقواعد علم الصرف. ويشير الجنديّ إلى هذا أثناء كلامه عن القلب المكاني قائلاً: «**وهو [أي القلب] تقديم أو تأخير أحد حروف اللفظ مع حفظ معناه**» (المصدر نفسه، ص ٦٤٧).

يحدث القلب المكاني في علم الصرف في صيغ الكلمات ووقوعه في المعتل والمهموز أكثر من غيرهما، وفي ذلك يقول السيوطي: «**وأكثر ما يكون القلب في المعتل والمهموز، كهاري في هائر وشاكي السلاح في شائك وراء في رايي وآبار في أبآر**» (السيوطي، ١٤١٣، ج ٦، ص ٢٧٦). وفي الواقع يمكن أن نقول إن القلب الصرفي يحدث في الكلمات التي تكون لصياغتها أوزان خاصة معروفة متفقة عليها لكن بعد حدوث هذا النوع من القلب يتغيّر الوزن الصرفي المتفق عليه بالتغيير الذي يحدث في مكانة حروف الوزن مثل كلمة «آبار» في جمع «البئر» التي كان وزنه الصرفي قبل حدوث القلب «أفعال» ثمّ تغيّر بعد القلب إلى «أعفال». في هذا النوع أيضاً لا يتغيّر معنى الكلمات.

وهناك نوع آخر من القلب المكاني يمكن مشاهدته في الكتب، وهو يختلف عما سبق ذكره؛ لأنّه يحدث في هيئة الكلمات غالباً وذلك مثل كلمة «لعمري» المستفادة في القسَم والتي تتغيّر بعد القلب إلى «رَعملي». وكما نرى أن هذه الكلمة تدخل في دائرة التركيب الإضافي خلافاً لسابقيها من الكلمات. يتابع السيوطي كلامه بعد الحديث عن القلب الصرفي معتبراً هذا النوع من القلب نوعاً مختلفاً عن السابق، فيقول: «**وأكثر ما يكون القلب في المعتل... ومنه في غيرهما: رَعملي في لَعمري**» (المصدر نفسه).

٢ـ٢. القلب في علم الصرف

هناك نوعان من القلب في علم الصرف وهما «القلب الإعلالي» و«القلب الإبدالي». فالقلب الإعلالي بمعنى «**تصيير حرف العلة إلى حرف علة آخر**» (أبوحيان الأندلسي، ١٤١٨، ج ١، ص ٣٣٤)، كقلب «الواو» في «قَوَلَ» إلى «الألف» في «قال».

والقلب الإبدالي كما يعرّفه الثعالبي من سنن العرب وهو يعني إبدال حروف المباني وإقامتها مكان بعض: «**من سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مكان بعض، في قولهم: مدح ومده، وجد ووجذ، خرم وخزم، صقع الديك وسقع، فاض: أي مات وفاظ، فلق الله الصبح وفرقه. وفي قولهم: صراط وسراط، ومسيطر مصيطر، ومكة وبكة**» (الثعالبي، ١٤٢٠، ص ٤١٨). وكما نرى لا يحدث أيّ تغيير في معاني الكلمات في كلا النوعين من القلب الصرفي (الإعلالي والإبدالي).

٢ـ٣. القلب في علم النحو

مصطلح القلب في الكتب النحوية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الدلالي (القلب المعنوي) ونراه في باب الجوازم لفعل مضارع واحد؛ لأنّ حرفَي «لم» و«لّما» إضافة إلى جزم المضارع يقلبان زمنه إلى الماضي والنحاة يسمّون هذه الظاهرة قلب المعنى وفي ذلك يقول شارح *الأجرومية*: «**"لم" حرف نفي وقلب وجزم باتفاق، حرف ... قلب لأنها تقلب زمن الفعل المضارع من الحال والاستقبال إلى الزمن الماضي، "لَمّا" أختها بمعنى أنها مثلها في كونها حرف نفي وقلب وجزم ... لم ولما ... يتفقان في أمور: ... في القلب، أي قلب زمانه [أي المضارع] إلى المضي**» (الشنقيطي، ١٤٣١هـ، ص ٢٨٧).

٢ـ٤. القلب في علم البديع

بعد بحث بسيط في كتب البلاغة ولاسيما البديع يمكن ملاحظة مصطلح القلب في عدة مواضع نشرحها اختصاراً فيما يلي:

٢ـ٤ـ١. جناس القلب: الذي يسمّى «الجناس المقلوب» أيضاً وهو يحدث عندما اختلف المتجانسيْن في ترتيب الحروف وهذا الاختلاف في الترتيب يكون أحياناً في كلّ حروف الكلمة والأخرى في بعض حروفها وعلى هذا الأساس لدينا ضربان من هذا الجناس: «قلب الكل» و«قلب البعض»: مثل: «حسامه فَتْح لأوليائه، حَتْف لأعدائه» في قلب الكلّ، و«اللّهمّ استُر عَوراتنا وآمِن رَوعاتنا» في قلب البعض (انظر: السكاكي، ١٤٠٧هـ، ص ٤٣١).

٢ـ٤ـ٢. العكس: و«**هو أن تقدّم في الكلام جزءاً، ثم تعكس فتقدّم ما أخّرت وتؤخّر ما قدّمتَ**» (المصدر نفسه، ٣٢٦)؛ للعكس أقسام منها «**أن يقع بين متعلقي فعلين في جملتين نحو: يُخرِج الحيَّ من المَيِّتِ ويُخرِج المَيِّتَ من الحيِّ**» (المصدر نفسه)، وبما أنّ الكلمات المستخدمة في هذا القسم (الحيّ والميت) متضادتان من حيث المعنى، يقال له «طباق القلب» أيضاً.

٢ـ٤ـ٣. ما لا يستحيل بالانعكاس: وفقا لما ورد في الكتب البلاغية: «**هو أن يكون الكلامُ بحيث إذا قلبتَه أي ابتدأتَ به من حرفه الأخير إلى حرفه الأوّل كان إيّاه وهو يقع في النثر وقد يقع في النظم ومنه قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾** (الأنبياء ١٢: ٣٣)» (مطلوب، ٢٠٠٧م، ص ٥٨١). لهذه الصناعة تسميات أخرى منها «مقلوب الكل» و«المقلوب المستوى» و«الطرد والعكس».

٢ـ٥. القلب في علم البيان

يقع القلب في علم البيان أثناء الكلام عن التشبيه المقلوب أو المعكوس والمراد منه ذلك التشبيه الذي رُجّح فيه المشبّه على المشبّه به، و يعرّف القزويني أثناء كلامه عمّا يعود إلى المشبه به من أغراض التشبيه هذا التشبيه بقوله: "**أما الثاني [من الأغراض] فيكون في الغالب إيهام أن المشبه به أتمّ من المشبه في وجه الشبه، وذلك في التشبيه المقلوب كقول محمد بن وهيب: «وَبَدا الصَّباحُ كأنَّ غُرَّتَهُ / وَجهُ الخَليفَةِ**

حِينَ يَمتَدِحُ[1]» ، فإنه قصد إيهام أن وجه الخليفة أتمّ من الصباح في الوضوح والضياء ... ومنه قوله تعالى حكاية عن مستحلّ الربا : ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ (البقرة ١ : ٢٧٥) ؛ فإن مقتضى الظاهر أن يقال : إنما الربا مثل البيع ؛ إذ الكلام في الربا لا في البيع، فخالفوا لجعلهم الربا في الحلّ أقوى حالا من البيع وأعرف به" (القزويني، ١٩٩٨م، ص ٢٢٦).

وعدّ الميداني القلب وبالتالي التشبيه المقلوب نوعاً من أقسام الخروج عن مقتضى الظاهر قائلاً : «**ومن الخروج عن مقتضى الظاهر "القَلبُ" ويكون القلب بإجراء التبادل بين جزئين من أجزاء الجملة لغرضٍ بلاغيّ يستحسنُه الفطناء ، ويُلْحق به القلب في التشبيه ... واستعمال القلب في التشبيه يتضمّن ادّعاء أنّ الصفات في المشبّه أفضل منها في المشبه به، فيأتي القلب أبلغ إذا كان التشبيه دقيقاً متقناً مختاراً ببراعة. ومن القلب قول الشاعر : "يكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ"[2] . وكان مقتضى الظاهر أن يقول : تكون مزاجَ العسلِ والماءِ ، إلاّ أن الشاعر أجرى القلب بين جزئين من أجزاء جملته**» (الميداني، ١٤١٦، ج ١، ص ٥١٩). جاء في *حاشية الدسوقي* تأييداً لوقوع القلب في هذا البيت : «**فجعل المبتدإ الذي حقّه التعريف نكرةً وهو عسل، وجعل الخبر الذي حقّه التنكير معرفة فهذا دليل على القلب حيث خالف الأصل**» (الدسوقي، ٢٠٠٨، ج ٣، ص ٥٤٠).

والغرض من القلب في التشبيه في غالب الأحيان هو المبالغة فيه ؛ لأن حدوث القلب يؤدّي إلى تشبيه المشبّه به إلى المشبّه وعلى أساسه يدّعي المتكلم أن وجه الشبه في المشّبه أقوى منه في المشبّه به، كما يقول صاحب ***الطراز*** عن البيت المذكور : «**فبالغ حتى جعل المشبّه أعلى حالاً من المشبّه به في الوضوح والجلاء ، لأن الغالب في العادة هو تشبيه بياض الوجه بغرّة الفجر ، فأما ههنا فعلى العكس من ذلك**» (يحيى بن حمزة، ١٣٣٢هـ، ج ٣، ص ٣٢٧).

٢.٦. القلب في علم المعاني

ذكرنا آنفاً أنه بسبب الأهمية البالغة لظاهرة القلب في معاني الجمل، الهدف الرئيس من مقالتنا هذه هو معالجتها في علم المعاني ؛ لأنّ القلب إضافة إلى التغيير الذي يوجبه في موضع كلمات الجملة (التقديم والتأخير)، في بعض الأحيان يُغيّر إعرابها أيضاً وفي هذه الحالة يصعب تمييز معنى الكلام. وبناءً على ذلك خصّصنا هذا القسم من المقالة لظاهرة القلب في علم المعاني ودرسناها بمختلف أقسامها ودواعيها شارحين نماذج منها في الآيات الشريفة للذكر الحكيم والشعر العربي القديم.

يقع مصطلح القلب في علم المعاني في موضعين :

٢.٦.١. قصر القلب : إيضاحاً لهذا النوع من القلب علينا التعرّف على مصطلح القصر والحصر بدايةً : «**الحصر هو القصر ومعناه تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ... وللقصر طرفان : المقصور وهو الشيء المخصَّص، والمقصور عليه وهو الشيء المخصّص به**» (مطلوب، ٢٠٠٧، ص ٤٦٨). القصر على ضربين : القصر الحقيقي «**وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة لا يتعدّاه إلى غيره أصلاً**» (المصدر نفسه، ص ٤٦٩)، والقصر الإضافي «**وهو غير حقيقي بأن يكون القصر فيه بالإضافة إلى شيء مخصوص ما عدا المقصور عليه**» (المصدر نفسه). «**والقصر الإضافي باعتبار حال المخاطب على ثلاثة أنواع : قصر الإفراد ، وقصر التعيين، وقصر القلب «وذلك إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي يثبت بالقصر مثل "الأديب محمد لا الخالد" إذا كان المخاطب يعتقد غير ذلك**» (المصدر نفسه). في الحقيقة في هذا النوع من القصر نجعل الحكم عكس ما يقول به المخاطب ونؤيّده.

٢.٦.٢. قلب المواضع الإعرابية ؛ ويقع في غير الإسناد أو في المسند والمسند إليه. والأول يشتمل على ثلاثة أشكال :

---

١. الغرة في الأصل : البياض في جبهة الفرس، وقد استعيرت لبياض الصبح، والمراد تشبيه وجه الخليفة بها ؛ ولهذا كان التشبيه مقلوباً.

٢. والبيت بأكمله : «كأنّ سَبِيئَةً مِنْ بَيتِ رأسٍ / يَكونُ مِزاجَها عسلٌ وماءُ» (ابن هشام، ١٣٨٦ش، ج ٢، ص ٣٥٠).

٢ـ٦ـ٢ـ١. قلب المعطوف والمعطوف عليه: وهو كما يعرّفه مطلوب: «**جعل المعطوف عليه معطوفاً، والمعطوف معطوفاً عليه**» (المصدر نفسه، ص ٥٦٢). فعلى هذا الأساس يقع هذا القلب بين المعطوف والمعطوف عليه، كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**﴾ (النجم ٥٣: ٨). فمن الاحتمالات الواردة في هذه الآية هو احتمال القلب فيها بين المعطوف والمعطوف عليه والداعي منه مراعاة السجع في الكلام وضرورة الموسيقى لرعاية الفواصل.

كلمة «تدلى» تعني الهبوط من الأعلى إلى الأسفل: «**ولا يكون التَّدلّي إلا من عُلْوٍ إلى اسْتِفَال**» (ابن منظور، د.ت، مادة «دلو»). ومن البديهي أننا إذا اعتبرنا مرجع الضمير في الآية جبرئيل، فهو لا بدّ أن يهبط من السماء للاقتراب من النبي ﷺ. والطبرسي أيضاً يأتي بوجه في تفسير الآية ويُسند كلا الفعلين إلى جبرئيل قائلاً: «قوله ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**﴾ تقديره ثم تدلى أي قرب بعد بُعده و علوّه في الأفق الأعلى فدنا من محمد ﷺ» (الطبرسي، ١٣٧٢، ج ٩، ص ٢٦٢). والدسوقي أيضاً في حاشيته يشير إلى أنّه إذا جعلنا النبيّ ﷺ مرجع الضميرين، هناك في الآية قلب أيضاً: «**المعنى: ثمّ بعد أن كان النبيّ في السماء تدلّى في الهواء فدنا من بيت المقدس**» (الدسوقي، ٢٠٠٨م، ج ٣، ص ٥٤٤).

٢ـ٦ـ٢ـ٢. قلب المفعول به والمجرور: هذا النوع من القلب يحدث بجعل المفعول به مكان المجرور، كقوله تعالى: ﴿**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ**﴾ (القصص ٢٨: ١٢). وقد وضّح مؤلف كتاب *الصاحبي* المراد من الآية قائلاً: «**ومعلوم أن التحريم لا يقع إلا على مَن يلزَمُه الأمر والنّهي، وإذا كان كذا فالمعنى: وحرَّمنا على المراضع أن يرضِعْنَه. ووجه تحريم إرضاعه عليهن أن لا يقبَل إرضاعهن حتى يُرَدّ إلى أمّه**» (ابن فارس، ١٤١٨هـ، ص ١٥٤). وهذا القول يؤيّد احتمال القلب في الآية. هذا وجاء بعض المفسرّين من أمثال صاحب *الجامع لأحكام القرآن* وتبعهم بعض المعربين المعاصرين جاوؤا بتبريرات في التفسير وقالوا إنّ «التحريم» في الآية بمعنى «المنع» وعنده لا يوجد قلب في الكلام (انظر: القرطبي، ١٤٢٣هـ، ١٣: ٢٥٧؛ والصافي، ١٤٣٨هـ، ٢٠: ٢٣٠). ولكن يمكن اعتبار هذا القول من تأثّرات اللغة وأصحابها بكلام المفسرّين الذي أشرنا إليه فيما مضى. والجدير بالذكر ـ كما قلنا سابقاً ـ أنّه إذا اعتبرنا القلب من سنن العرب في محادثاتهم فلا حاجة إلى التمسك بهذه التبريرات واختلاق المعاني الجديدة للكمات.

وللقلب في الآية اعتبار لطيف وهو تكريم النبيّ موسى عليه السلام إذ إنّ الله سبحانه وتعالى نزّله منزلة البالغ المكلّف، ويشير شبايك إلى هذا الاعتبار بقوله: «**من أسرار بلاغة القلب في الآية تكريم الرضيع بتنزيله منزلة البالغ المكلّف وإكرامه بألاّ يرضع ثدياً غير ثدي أمه لينال حنانها وينعم بطيب ريحها**» (شبايك، ١٤١٩هـ، ص ٣٠).

ومن نماذج هذا القلب في الشعر القديم قول امرئ القيس:

يُضِيءُ سَنَاهُ أو مَصَابيحُ راهِبٍ ... أَمَالَ السَّلِيطَ بِالذُّبالِ الْمُفَتَّلِ

(امرؤ القيس، ١٤٢٥هـ، ص ٦٥)

يشير الزوزني إلى ظاهرة القلب أثناء الكلام عن شرح البيت قائلاً: «**السليط: الزيت، الذُّبال: جمع ذبالة وهي الفتيلة. وزعم أكثر الناس أن قوله أمال السليط بالذبال المفتل من المقلوب، وتقديره: أمال الذبال بالسليط إذا صبّه عليه، وقال بعضهم: إن تقديره أمال السليط مع الذبال المفتل، يريد أن يميل المصباح إلى جانب فيكون أشد إضاءة لتلك الناحية من غيرها**» (الزوزني، ١٤٥٢، ص ٦٠). والمراد من إمالة الذبال (الفتيلة) بصبّ السليط (الزيت) عليه هو كثرة الزيت الذي صُبّ على الفتيلة وهذا فيه دلالة على سخاء الراهب.

والداعي في البيت هو الإغراق أو ضرورة الموسيقى لإقامة الوزن وإتمام القافية أو العبث بالألفاظ.

٢ـ٦ـ٢ـ٣. قلب المُقيَّد والقيد: النوع الأخير من القلب الغير الإسنادي نوع لا يمكن اعتباره من الأنواع السابقة فلذلك جعلناه في نوع مستقل قائم بذاته وسمّيناه قلب المقيَّد والقيد، وله نماذج في القرآن الكريم منها: ﴿**يَا أَيُّها النَّبيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ (الأحزاب ٣٣: ٥٩). ما نستنتجه من ظاهر الآية هو أنّ الله ﷻ فرَض التغطية بالجلباب على نساء النبيّ ﷺ وجعله سبباً لمعرفة الناس إيّاهنّ حتى لا تُؤذى نساؤه ﷺ؛ هذا وأنّ المرأة لا تُعرف باستخدام الجلباب بل على العكس تبقى مجهولة إلا أن نقول إنّ الحجاب كان سبباً لإعادة معرفة الناس إيّاهنّ من سائر النساء اللواتي ليس لهنّ حجاب، وعلى هذا فليس الحجاب سبب المعرفة بل هو سبب التمييز.

ولكن إذا قلنا بالقلب في الآية فتقديرها: ذَلِكَ أَدْنَى أَن لا يُعْرَفْنَ فَيُؤْذَيْنَ: بمعنى أنّ الجلباب سبب لعدم معرفة الناس إياهنّ حتى يؤذين؛ إذ إنّ الحجاب يوجب أن يبقين مجهولات. ولنزيد الموضوع إيضاحاً علينا الإشارة إلى صناعة بلاغية مسماة بـ«عكس الظاهر» التي يعرّفها مطلوب هكذا: «**عكس الظاهر هو نفي الشيء بإثباته ... وذلك أن تذكر كلاماً يدلّ ظاهره على أنّه نفي لصفة موصوف وهي نفي للموصوف أصلاً**» (مطلوب، ٢٠٠٧هـ، ص ٥٣٤)، متابعاً قوله ناقلاً عن ابن الاثير: «**وحقيقة أن تذكر كلاماً يدلّ ظاهره على معنى ويراد به معنى آخر عكسه**» (المصدر نفسه)، ويأتي بأبيات لإيضاح هذه الظاهرة إضافة إلى الآيات القرآنية، منها قول الشاعر: «"**أدنينَ جلبابَ الحَياءِ فَلَن يُرَى / لِذُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبارُ**"، **وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يمشين هَوناً لحيائهنّ فلا يظهر لذيولهن غبار على الطريق وليس المراد ذلك بل المراد أنهنّ لا يمشين على الطريق أصلاً أي أنهنّ مُخبَّئات لا يخرجن من بيوتهن فلا يكون إذن لذيولهن على الطريق غبار**» (المصدر نفسه).

وعلى أساس هذه الصناعة يمكن أن نقول في الآية أيضاً لا تُعرف نساء النبيّ ﷺ بعد استخدام الجلباب أبداً حتى يؤذين والفرق أنه في القلب خلافاً لظاهرة عكس الظاهر نرى انتقالاً بين موضع الكلمات في الجملة. هذا وكثير من المفسّرين والمترجمين لم يلتفتوا إلى هذه النكته البلاغية الظريفة في كتبهم.

والداعي في الآية هو أنّ الآية تحتمل كلا الوجهين على معنى خاصّ: الوجه المقلوب، له معنىً على ما شرحناه (لا يُعرفن فيُؤذين) والوجه الحالي أيضاً له معنىً إيهامي وهو أنّه تُعرف النساء باستخدام الجلباب والناس يفهم انتسابهنّ إلى النبيّ ﷺ فلا يؤذين.

٢ـ٦ـ٣. قلب الإسناد: «**وهو أن يشمل الإسناد إلى شيء والمراد غيره، كقوله تعالى:** ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ**﴾ (القصص ٢٨: ٧٦)، **ومعناه أن العصبة تنوء بالمفاتح لثقلها، فأسند "لَتنوء" إلى "المفاتح" والمراد إسناده إلى العصبة**» (مطلوب، ٢٠٠٧هـ، ص ٥٣٤).

يمكن تقسيم هذا القلب في علم المعاني باعتبار المقلوب والمقلوب إليه إلى أقسام مختلفة وهذه الأقسام لم تتطرق إليها البحوث والدراسات التي سبقت بحثنا بحيث يمكننا اعتبار هذا المبحث من مظاهر الابتكار في هذه الدراسة.

٢ـ٦ـ٣ـ١. قلب الفاعل والمجرور: هذا القلب يحدث عند إقامة الفاعل مقام المجرور: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾ (القصص ٢٨: ٧٦). وتقدير الآية: «مَا إِنَّ الْعُصْبَـةَ أُولِي الْقُوَّةِ لَتَنُوءُ بِمَفَاتِحِهِ لثقلها» كما جاء في *اللسان*: «**قال الفرّاءُ: وقد قال رجل من أهل العربية: ما إنَّ العُصْبةَ لَتَنُوءُ بمفاتِحِه، فَحُوِّلَ الفِعْلُ إلى المَفاتِح، كما قال الراجز: إنَّ سِراجاً لَكَرِيمٌ مَفْخَرُهْ، تَحْلى بهِ العَيْنُ إذا ما تَجْهَرُهْ وهو الذي يَحْلى بالعين، فإذا كان سُمع آتوا بهذا، فهو وجه، وإلاّ فإنّ الرجل جَهِل المعنى**» (ابن منظور، د.ت، مادة «نوأ»). علينا القول في شرح السبب إنّ عبارة «ناءَ بِحِملِهِ» تعني «نَهضَ به مُثقَلاً» (انظر: ابن منظور، د.ت، مادة «نوأ»). وعلى هذا الأساس تدخل

«الباء» في هذا الفعل على المحمول (الحِمل) دون الحامِل كما يشير الطوسي في تفسيره إلى هذه النقطة حيث يقول: «**وإنما قال لتنوء بالعصبة والمعنى العصبة تنوء بها، لأن المعنى: تميل بها مثقلة**» (الطوسي، د.ت، ج ٨، ص ١٧٦).

لم يعدّ بعض المفسرّين القلبَ ظاهرة بلاغية في اللغة ونزّهوا القرآن عن احتمال وروده فيه وابتغاءً للردّ على حدوث القلب في لغة القرآن قاموا بتغيير معاني الكلمات، منهم أبو هلال العسكري (المتوفى ٣٩٥هـ) حيث يقول: «**قال اللّه: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ وتنوء بالعصبة، أي: تغلبهم ولو ناءوا بها لكانوا قد حملوها ولكن هي نأت بهم، أي: ارتفعت بهم فلم يطيقوها**» (العسكري، ١٤٢٨هـ، ص ٣٩٢)، ومثله الأصبهاني (المتوفى ٥٣٥هـ)، صاحب *إعراب القرآن* حيث يقول: «**ومثله: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾، أي: تنيء العصبة، وليس قول أبي عبيدة إنه مقلوب، وإن المعنى فيه: ما إنَّ مفاتحه لتنوء العصبةُ بها بشيء لأنّ هذا القلب إنما يقع من الضرورة ... ولا يجب أن يحمل القرآن عليه**» (الأصبهاني، ١٤١٥هـ، ص ٢٥٩ـ ٢٩٦). وقد تأثّر بعض أصحاب المعاجم المعاصرة بآراء المفسرّين فذكروا معانيَ جديدة غير مألوفة للكلمات والتعابير حذرا من الاعتراف بالقلب، كما نرى أنّه جاء في *المعجم الوسيط* تحت مادة «ناء» مُسبقاً لذكر هذه الآية أن «الباء» التي عليها أن تدخل على المحمول في الأصل، دخلت على الحامل: «**ناء به الحِملُ: أثقَلَه و أماله**» (أنيس وآخرون، ١٤٢٥، مادة «نوأ»). هذا ولكن لو اعتبرنا ظاهرة القلب في كلام العرب سنةً شائعةً، لم نحتج إلى التمسّك بهذه الاحتمالات البعيدة والمتكلّفة.

ولكن إن اعتبرنا الباء الداخلة على الفعل في الآية الشريفة للتعدية يُلغى احتمال وقوع القلب فيها؛ لأنّه بناءً على ما ورد في المعاجم فعل «ناءَ ـُ» بمعنى «سَقَطَ» (المصدر نفسه)، والباء فيه للتعدية.

والداعي من القلب في الآية الكريمة المبالغة والإغراق في ثقل المفاتح وفيها إشارة إلى مدى ضخامة ثروة قارون.

وكذلك الآية الشريفة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (الفرقان ٢٥: ٢٥). وردت كلمة «تشقّق» في المعاجم هكذا: «**تشقّق: تَصدَّع وبدت شقوقه**» (أنيس وآخرون، ١٤٢٥، مادة «شقق»)، وفي الآية الشريفة أُسند الفعل إلى السماء ومعلوم أنّ السماء لن تتصدّع قطّ، وما يتصدّع ويبتعد بعضه عن بعض ويشقّ هو السحاب (الغمام). فلذلك تقدير الآية: «يوم تشقق الغمام بالسماء» وعلى أساسه ففي الآية قلب، والداعي منه خلق جوّ شعري رائع؛ لأنه يمكننا في عالم الخيال أن نتصوّر انشقاق السماء بتصدّع السحاب وابتعاده عن البعض. وخلق هذا الجوّ الخيالي المرهف واحتمال هذه الاعتبارات اللطيفة هو أحد دواعي استخدام القلب في اللغة، وهذا ما سندرسه بالتفصيل في نهاية البحث.

هذا وقد جعل بعض المفسرّين «الباء» بمعنى «عن» حيث قال: «**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ: أي "عنه"**» (الإتقان، ١٣٩٤، ج ٢، ص ٢١٦). وهناك نماذج لهذا النوع من القلب في الشعر الجاهلي منها بيت من معلّقة امرئ القيس الذي يمكن اعتباره من باب قلب الفاعل والمجرور وهو:

فلمّـــا أجَزْنـــا ســـاحَةَ الحَـــيِّ وَانْتَحَـــى بِنـــا بَطْـــنُ خَبْـــتٍ ذي حِقـــافٍ عَقَنْقَـــلِ

(امرؤ القيس، ١٤٢٥، ٣٩)

في هذا البيت أُسند فعل «انتحى» إلى كلمة «بطن خبت». وقد وردت كلمة «انتحى» في المعجم بمعنى «مال إلى ناحية» (أنيس وآخرون، ١٤٢٥، مادة «نحي»)، فمن البديهي أنّ أرض «بطن خبت» ليس بإمكانها الانتحاء إلى جانب فلذلك التقدير هو «انتحينا ببطن خبت». وقد شرح الزوزني هذا البيت قائلاً: «**وقوله: انتحى بنا بطن خبت أسند الفعل إلى بطن خبت والفعل عند التحقيق لهما ولكنه ضرب من الاتساع في الكلام، والمعنى صرنا إلى مثل هذا المكان**» (الزوزني، ١٤٢٥، ص ٣٥).

ويمكن اعتبار الداعي من القلب في البيت نوعا من التشخيص.

٢ـ٦ـ٣ـ٢. قلب متعلق الفاعل والمجرور: وهو إذا أقيم متعلق الفاعل مقام المجرور وبالعكس، ومن نماذجه في الشعر الجاهلي:

تَسَلَّتْ عِماياتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبَى وَلَيسَ فُؤادِي عَنْ هَواكِ بِمُنْسَلِ

(امرؤ القيس، ١٤٢٥، ٤٧)

وقد شرح الزوزني هذا البيت معتبراً إيّاه من أقسام القلب إذ يقول: «**سلا فلان عن حبيبه يسلو سلوًّا، وسلى يسلى سُلِيًّا، وتسّلى تسّلّيًا، وانسلى انسلاء أي زال حبه من قلبه أو زال حزنه ... زعم أكثر الأئمة أن في البيت قلبًا تقديره: تسلّت الرجالات عن عمايات الصبا أي خرجوا من ظلماته وليس فؤادي بخارج من هواها. وزعم بعضهم أن "عن" في البيت بمعنى "بعد"، تقديره: انكشفت وبطلت ضلالات الرجال بعد مضيّ صباهم، وفؤادي بعد في ضلالة هواها، وتلخيص المعنى: أنه رغم أن عشق العشاق قد بطل وزال وعشقه إياها باقٍ ثابت ولا يزول ولا يبطل**» (الزوزني، ١٤٢٥، ص ٤٣).

٢ـ٦ـ٣ـ٣. قلب نائب الفاعل والمجرور: هذا النوع من القلب يختص بالتغيير والاستبدال الذي يحدث في مكان نائب الفاعل والمجرور، كقوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَ آتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهُ كَارِهُونَ**﴾ (هود ١١ : ٢٨). لكلمة «عميت» في الآية قراءتان: «**قرأ حمزة والكسائي وحفص "فعُمِّيَت" بضم العين وتشديد الميم. الباقون بتخفيف الميم وفتح العين. وقال أبو علي: من قرأ "فعميت" بالتخفيف فلقوله: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾** (القصص ٢٨ : ٣٦)، **وهذه مثلها**» (الطوسي، د.ت، ج ٥، ص ٤٧٢). ووقوع القلب في القراءة الثانية محتمل؛ يقول الطوسي في تفسير الآية الشريفة مشيراً إلى احتمال القلب فيه: "**ويجوز في قوله "فعميت" أمران: أحدهما أن يكون عموا هم [عنها]، ألا ترى أن الرحمة لا تعمى وإنما يعمى عنها، فيكون هذا من المقلوب، كقولهم: أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت الخاتم في إصبعي ونحو ذلك مما يقلب إذا زال الاشكال. والآخر أن يكون معنى عميت خفيت، كقول الشاعر: «وَمَهْمَهٍ أطرافُهُ في مَهْمَهِ / أعْمَى الهُدَى في الحائِرينَ العُمَّهِ»**" (المصدر نفسه). هذا وإن سلّمنا قراءة الحمزة والكسائي والحفص (أي القراءة بالتشديد) يُلغى احتمال القلب في الآية؛ لأنّ كلمة «عمّى» وردت في المعاجم هكذا: «**عمّى عليه الشيءَ: لَبَّسَه وأخفاه**» (أنيس وآخرون، ١٤٢٥، مادة «عمي»)، فيكون معنى الآية أنّ الرحمة المُنزَلة من قِبل الله ﷻ على النبي ﷺ خفيت عن المعاندين.

والداعي من القلب في الآية هو المبالغة بمعنى أن المعاندين أصبحوا عمياناً ولا يروْن الرحمة وقد بلغ الأمر إلى حد فكأنّ الرحمة أيضاً لا تراهم حتى تشملهم وتحيط بهم. ومن نماذج هذا القلب في الشعر القديم قول الشاعر:

آذَنَتنا بِبَينِها أَسْماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّواءُ

(الحارث بن حلزة، ١٤١٥، ص ٦٧)

يقول الزوزني في تقدير البيت: «**والتقدير: رب ثاو يمل من ثوائه**» (الزوزني، ١٤٢٥، ص ٢٢٧)؛ لأن الإنسان يسأم من الإقامة وطولها ولا تسأم الإقامة من الإنسان. وإن كانت هناك عدة تأويلات أخرى في تقدير البيت فاحتمال القلب أحد منها. والداعي من القلب في البيت هو الاضطرار أو الإغراق في طول الإقامة أو العبث بالألفاظ.

٢ـ٦ـ٣ـ٤. قلب المبتدأ (أو ما كان أصله المبتدأ) والمجرور (بالحرف أو المضاف):

وأحياناً نرى أنّ القلب حدث بين المبتدأ (أو ما كان أصله المبتدأ) والمجرور (بالحرف أو المضاف)، كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾ (الرعد ١٣ : ٣٤). يشير الطبرسي بعد تفسير الآية إلى احتمال القلب في الآية حيث يقول: «**و[الوجه] الثالث أنه من المقلوب والمعنى: «لكل كتاب ينزل من السماء أجل ينزل**

فيه» عن ابن عباس والضحاك ومعناه لكل كتاب وقت يعمل به فللتوراة وقت وللإنجيل وقت وكذلك القرآن» (الطبرسي، ١٣٧٢ش، ج ٦، ص ٤٥٧).

يمكننا القول إنّ الداعي من القلب في الآية هو أنّ الله سبحانه وتعالى أراد الإشارة إلى أنّ كلا الوجهين (الوجه الحالي والوجه المقلوب) لهذه الجملة له معنىً خاص ولكنّ الوجه الحالي له معنىً إيهامي وهو أنّ لكلّ أجل كتاب خاص، كما يكون لكلّ كتاب أجل معيّن. وكذلك في الشعر الجاهلي:

بَطَلٍ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

(الزوزني، ١٤٢٥، ص ٢١٩)

يمكن القول في تقدير البيت: كأنّ سرحةً في ثيابه، هذا وأن الزوزني يسعى لرعاية الترتيب الحالي للكلمات بالإتيان بفعل مبنيّ للمجهول في التقدير: «**وهو بطل مديد القد كأنّ ثيابه أُلبِسَتْ شجرة عظيمة من طول قامته واستواء خلقه**» (المصدر نفسه).

إن داعي القلب في البيت هو سبق اللسان (وهو الإتيان بكلام قبل الآخر خوفاً من النسيان أو الفوت) أو العبث بالألفاظ. وكذلك:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

(الزوزني، ١٤٢٥، ص ٢١٧)

وتقدير البيت مع احتمال القلب فيه هو: «ليس القنا محرّما على الكريم» وهذا يعني أنّ الرمح ليس محرّماً على العدوّ الكريم، وكرامته لا توجب عدم إصابته للرمح، كما يشير إليه الزوزني شارحاً البيت: «**ليس الكريم محرّماً على الرماح، يريد أنّ الرماح مولعة بالكرام لحرصه على الإقدام، وقيل بل معناه أن كرمه لا يخلصه من القتل المقدّر له**» (المصدر نفسه). وداعي القلب في البيت هو ضرورة الموسيقى لإقامة الوزن أو المبالغة أو العبث بالألفاظ.

٢ـ٦ـ٣ـ٥. قلب المبتدأ (أو ما كان أصله المبتدأ) ومتعلّق الخبر: وهو بمعنى إقامة المبتدأ (أو ما كان أصله المبتدأ) مقام متعلّق الخبر، نحو قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الشعراء ٢٦: ٧٥ـ ٧٧). لو افترضنا تقدير الآية «فإني عدوّ لهم» يمكن اعتبارها من القلب؛ لأنّ اتصاف الأصنام بالعداوة غير معقول، كما يشير إليه ابن فارس بقوله: «**الأصنام لا تعادي أحداً، فكأنه قال: فإني عدوٌّ لهم. وعداوته لها بغضه إيّاها وبراءته منها**» (ابن فارس، ١٤١٨هـ، ص ١٥٤). وداعي القلب هنا هو التشخيص.

٢ـ٦ـ٣ـ٦. قلب الفاعل والمفعول به: هذا النوع من القلب يوجب التغيير في مكان الفاعل والمفعول به في الجملة ونظيره في الآية الشريفة: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ (آل عمران ٣: ٤٠). وتقديرها: «وقد بلغتُ الكبرَ». وأشار إليه الطوسي في تفسيره قائلاً: «**وقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ والمراد بلغتُ الكبرَ، لأنّ الكبر بمنزلة الطالب له، فهو يأتيه بحدوثه فيه. والإنسان أيضاً يأتيه بمرور السنين عليه، كما يقول القائل: يقطعني الثوب وإنما هو يقطع الثوب. ولا يجوز أن يقول بلغني البلد بمعنى بلغت البلد، لأنّ البلد لا يأتيه أصلاً**» (الطوسي، د.ت، ج ٢، ص ٤٥٢).

والداعي هو التشخيص وأيضاً الإشارة إلى أنّ بلوغ الكبر ليس باختيار الإنسان؛ لأنّه إذا قلنا "بلغتُ الكبرَ" أسندنا الفعل إلى الإنسان كأنّ بلوغه الكبرَ حصل باختياره، والحال هو أنّ الكبر مع مضيّ الزمن يبلغه دون اختياره. وفي الشعر القديم:

وَمَا تَجَهَّمَنِي لَيْلٌ وَلا بَلَدٌ وَلا تَكَاءدَنِي عَنْ حَاجَتِي سَفَرُ

(المرزوقي، ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٤٨٩)

في هذا البيت قلب بين الفاعل والمفعول به، كما يشير إليه المرزوقي: «**قوله وما تهجمني ليلٌ فيه قلبٌ؛ لأن المعنى: ما تجهمت ليلاً ولا بلداً. ويقال تجهمت فلاناً ولفلانٍ، إذا استقبلته بوجهٍ كريهٍ. وأسدٌ جهم الوجه. فيقول: لا أنكره زمناً، ولا أستصعب مركباً، ولا أستبعد بلداً إذا سنح أمرٌ أوجب نهوضاً، أو سفرٌ اقتضى لبعده صبراً جميلاً. ويقال تكاءدني كذا، تصعدني كذا، إذا شق عليك**» (المصدر نفسه). والداعي في البيت هو التشخيص والعبث بالألفاظ وضرورة الموسيقى لإقامة الوزن. ومن نماذجه في المعلقات:

إذْ رَفَعنـــا الْجِمَـــالَ مِـــنْ سَـــعَفِ البَحْـــ ـــــرَينِ سَـــيرًا حَتّـــى نَهاهـــا الْحِسَـــاءُ

(الحارث بن حلزة، ١٤١٥، ص ٦٩)

وقد شرح الزوزني البيت بقوله: «**الحساء: موضع بعينه. يقول: حين رفعنا جمالنا على أشد السير حتى سارت من البحرين سيرًا شديدًا إلى أن بلغت هذا الموضع الذي يعرف بالحساء، أي طوينا ما بين هذين الموضعين سيرًا وإغارة على القبائل، فلم يكفّنا شيء عن مرامنا حتى انتهينا إلى الحساء**» (الزوزني، ١٤٢٥، ص ٢٣٦). والداعي في البيت هو التشخيص والعبث بالألفاظ وضرورة الموسيقى لإقامة الوزن وإتمام القافية.

يقول أبو هلال العسكري بالفرق بين نهاية الشيء وآخِره ويبيّن معني كلمة «النهاية» قائلاً: «**والنهاية مصدر مثل الحماية والكفاية إلا أنه سمّي به منقطع الشيء فقيل هو نهايته أي منتهاه**» (العسكري، ١٤١٨، ص ٢٩٣). وبناءً على ما قاله الزوزني، المراد من «نهاها الحساء» هو أنّ الجِمال وصلت إلى هذه المنطقة وكأنّ منطقة الحساء نهتها عن مواصلة السير.

إلى هنا وصلنا إلى أن القلب مصطلح يوجَد في مختلف علوم اللغة العربية كعلم اللغة والصرف والنحو والبلاغة بأقسامه الثلاثة وهو في علم المعاني يقع في موضعين: الأول قصر القلب والثاني قلب المواضع الإعرابية الذي نراه في الإسناد وفي غيره وهذا القلب في غير الإسناد يقع في ثلاثة مواضيع: قلب المعطوف والمعطوف عليه، وقلب المفعول به والمجرور، وقلب المُقيَّد والقيد. وأمّا قلب الإسناد فهو بدواعٍ مختلفة يقع في ستة مواضيع منها: قلب الفاعل والمجرور، وقلب متعلّق الفاعل والمجرور، وقلب نائب الفاعل والمجرور، وقلب المبتدأ (أو ما كان أصله المبتدأ) والمجرور (بالحرف أو المضاف)، وقلب المبتدأ (أو ما كان أصله المبتدأ) ومتعلَّق الخبر، وقلب الفاعل والمفعول به.

٣. الفرق بين القلب والمصطلحات المشابهة له

قلنا في بداية الكلام عن القلب إنّه بمجرد سماع هذا المصطلح (لاسيما في علم المعاني) يتبادر إلى أذهاننا عدة مصطلحات أخرى يكون بينها وبين القلب التشابه والتماثل. في هذا المبحث من أجل الفصل بين هذه المصطلحات ندرس علاقة القلب بهذه المصطلحات وأوجه التشابه والخلاف بينهما.

٣ ـ ١. التقديم والتأخير: أوّل ما يلفت انتباه الدارسين في هذا المجال هو علاقة القلب بالتقديم والتأخير؛ إذ إنّ كلا المصطلحين يوجب التغيير في الموضع الذي تحتلّه الكلمات في الجملة. قلّما يوجد تصريحٌ لعلماء العربية بتعريف مصطلح التقديم والتأخير ولعلّ ذلك راجع إلى وضوح المصطلح وشدة اتصاله بالمعنى اللغوي. يعرّف مطلوب التقديم والتأخير بقوله: «**التقديم من "قدّم" أي وضعه أمام غيره والتأخير نقيض ذلك**» (المصدر نفسه، ص ٤٠٤). وهو في الواقع عدم مراعاة نظم الكلام بنقل أحد أجزائه من مكانته الأولى إلى مكانة ثانية بحيث لم يكن مخلا للقواعد النحوية. والعلاقة المنطقية بين المصطلحين هو التباين؛ لأن التقديم والتأخير يوجب التغيير في موضع أجزاء الكلام مع بعض دون أيّ تغيير في إعراب الكلمات، مثل: «رأيتُ أحمدَ» و«أحمدَ رأيتُ» ولكن القلب كما رأينا يغيّر

إعراب الكلمات إضافة إلى تغيير موضعها في الجملة. ومع ذلك يمكن أن نعترف بنوع من التشابه بين المصطلحين لكنّه بالتسامح والتكلّف.

٣ ـ ٢. الإسناد المجازي: أحياناً نرى أنّ القلب بالتغيير الذي يُحدث في الكلمات وإعرابها يوجب إسناد المسند إلى مسند إليه آخر (غير ما يستحقّ أن يكون المسند إليه في الأصل). في هذه الحالات يتبادر مصطلح الإسناد المجازي إلى أذهاننا: «**[وهو] أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له**» (القزويني، ١٩٩٨، ص ٣١). والعلاقة المنطقية بين المصطلحين هي علاقة العموم والخصوص من وجه؛ إذ إنّ هناك في بعض أنواع القلب إسناداً مجازياً دون بعض الآخر وعلى العكس، كالآية الشريفة: ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾ (القصص ٢٨: ٧٦)، وهي نموذج للقلب والإسناد المجازي معاً ولكن في هاتين الآيتين: ﴿**ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ**﴾ (الأحزاب ٣٣: ٥٩) و﴿**ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى**﴾ (النجم ٥٣: ٨)، يوجد القلب فقط دون الإسناد المجازي وفي الآية الشريفة: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**﴾ (بقره ٢: ١٦)، هناك إسناد مجازي (إسناد الربح والخسارة إلى التجارة لا التجّار) دون القلب.

٣ ـ ٣. الانزياح: الانزياح أسلوب آخر بينها وبين القلب علاقة: «**وهو عبارة عن خرق المعيارية أو كلام ابتعد عن درجة الصفر التعبيرية وهو تجاوز كلام الناس العادي والعدول عنه إلى لغة غير مألوفة**» (العياشي، ٢٠٠٩، ص ٧٥ـ ٧٦). بناءً على ما سبق بيانه في تعريف القلب اصطلاحاً، يمكن اعتبار كلّ نماذج القلب شواهد للانزياح ومخالفة القواعد المعيارية غير بعض النماذج التي شاعت في اللغة الرائجة بين الناس، مثل: «أدخلت الخاتم في إصبعي». ولكن بما أنّ نطاق الانزياح أوسع من القلب، لا يمكن الاعتراف بالقلب في جميع نماذجه. فعلى ذلك العلاقة المنطقية بين القلب والانزياح هو العموم والخصوص مطلقاً.

٣ ـ ٤. التشبيه المقلوب: ذكرنا آنفاً في تعريف التشبيه المقلوب أو المعكوس وقلنا إنّه يحدث عندما «**يجعل فيه المشبّه مشبّها به و يجعل المشبّه به مشبّهاً**» (مطلوب، ٢٠٠٧م، ص ٣٤٥). وعلاقة هذا النوع من التشبيه بالقلب الذي هو أيضاً يوجب التغيير في موضع أركان الجملة وإعرابها معاً، هي علاقة العموم والخصوص من وجه؛ لأنّنا نرى تغيير مكانة المشبّه والمشبّه به في بعض نماذج القلب دون غيرها وكذلك ليس جميع نماذج التشبيه المقلوب من باب القلب في الكلام، مثل هذا البيت الذي لا يوجد فيه قلب:

في طَلْعَةِ البَدرِ نَصيبٌ مِنْ مَحاسِنِها وَلِلقَضيبِ نَصيبٌ مِنْ تَثَنّيها

(المصدر نفسه)

٤. دواعي القلب

لاستخدام كل أسلوب في اللغة والأدب دواع مختلفة ومن أهمّها تحسين الكلام لفظياً ومعنوياً ومخالفة اللغة المعيارية وخلق الجوّ الشعري. والقلب أيضاً لا يستثنى من هذا؛ لأنّه بتغييره الأسلوب العادي للكلام يلفت انتباه المخاطب ويؤثّر في نفسه. نرى شبايك يشير إلى هذا الموضوع في كتابه حيث يقول: «**فالقلب إذن نوع من التوسع في التعبير والخروج على الاستعمال العادي للغة، يسلكه الشاعر مادام لا يؤدي إلى اللبس في المعنى ويصل به إلى الغاية التي يهدف إليها**» (شبايك، ١٤١٩هـ، ص ٢٩)، ويشير السكاكي أيضاً في *المفتاح* إلى شيوع هذه الظاهرة في اللغة العربية وملاحتها التعبيرية معتبراً إياها من عوامل كمال البلاغة في الكلام قائلاً: «**هذا النمط مسمّى فيما بيننا بالقلب وهي شعبة من الإخراج لا على مقتضى الظاهر ولها شيوع في التراكيب وهي مما يورث الكلام ملاحة ولا يشجع عليها إلا كمال البلاغة تأتي في الكلام وفي الأشعار وفي التنزيل**» (السكاكي، ١٤٠٧هـ، ص ٢١٢)، وكذلك قول يحيى بن حمزة عن القلب: «**وهو من جملة أفانين البلاغة وفيه دلالة على الاقتدار في الكلام والإغراق فيه**» (يحيى بن حمزة، ١٣٣٢هـ، ج ٣، ص ٩٤).

رأينا بعض هذه الدواعي عند الكلام عن الشواهد التي ذكرناها فيما قبل وهي: الإغراق والمبالغة في الكلام والتشخيص والعبث الكلامي أو العبث بالألفاظ وسبق اللسان وضرورة الموسيقى لإقامة الوزن وإتمام القافية أو الفاصلة وإيصال المعنى الحالي إيهاماً. ولكن هناك دواع أخرى أشار إليها بعض الدارسين دون ذكر الشواهد وهي التهكم والمحاكاة كما أشار إليهما الزركشي ناقلاً عن صاحب *المنهاج* ـ وهو ممن ينكر احتمال القلب في اللغة العربية: «**إنه [القلب] مما يجب أن ينزّه كتاب الله عنه لأن العرب إن صدر ذلك منهم فبقصد العبث أو التهكم أو المحاكاة أو حال اضطرار والله منزّه عن ذلك**» (الزركشي، ١٣٧٦ش، ج ٣، ص ٢٨٨).

٥. هل القلب مقيس

لم تبحث الكتب بحثاً تفصيلياً بعدُ عن كون القلب في اللغة العربية ظاهرة قياسية أم سماعية ولكن ما نجده أثناء القراءة في تضاعيف الكتب وآراء العلماء هو أن هذه الظاهرة مع أنها من الظواهر الشائعة في اللغة العربية لكنها غير مقيسة لذلك اعترف بعض العلماء بوقوع هذه الظاهرة في اللغة العربية، هذا والحال أن البعض الآخر يردّ وقوعها في اللغة الفصحى ولغة القرآن الكريم ويستنكرها إلا في الشعر: «**القلب الصحيح لا يكون في كلام فصيح وإن بابَه الشعر**» (أبوحيان الأندلسي، د.ت، ج ٦، ص ٢٢٨).

والقرطاجني أيضاً في كتابه في باب «معلم دالّ على طرق العلم بما يزيل الغموض والاشتكال العارضين في المعاني» يجعل الظاهرة منحصرةً في السماع قائلا:

> **وأما الوجه الرابع [من أوجه المعنى]: وهو أن يكون المعنى متحرّفا بغرض الكلام عن مقصده الواضح معدولاً إليه عما هو أحق بالمحلّ منه حتى يوهم المعنى أن المقصود به ضد ما يدلّ عليه اللفظ المعبّر به عنه. وأكثر الناس يجعلون هذا النوع من الكلام مقلوباً. وبعض الناس يتأوّل ما ورد من ذلك تأويلاً فيه سلامة من القلب، ويرى أن ذلك وإن بعد التأويل أولى من حمل الكلام على القلب، إذ العبارة إنما تدلّ على المعنى بوضع مخصوص وترتيب مخصوص، فإن بدل ذلك الوضع والترتيب زالت تلك الدلالة. وهذا موضع يجب أن يوقف به عند السماع وألا يقاس عليه لأنه إن كان الكلام مقلوباً، وكانت العبارة مقصوداً بها غير ما تدلّ عليه بوضعها، وسوغ هذا عند حامل الكلام على هذا المذهب أن المقصد من الكلام واضح، وإن كانت العبارة غير دالة عليه، فقد ذهب بالكلام مذهب فاسد وكان ذلك خطأ في العبارة. وفي سعة الكلام مندوحة عن المذاهب الفاسدة** (القرطاجني، د.ت، ص ٥٧).

ولكن خلافاً لآراء السابقين حول جواز القلب في السماع أو القياس، يبدو أنّ الكلام عن هذا الموضوع في البحوث البلاغية مرفوض أصلاً ومعرَّض للنقد؛ إذ إنّ البحث عن السماع والقياس هو بحث نحوي لا بلاغي لأن المعيار في البلاغة هو الذوق وعلى أساسه يمكن وقوع القلب في كلّ نتاج أدبي ـ نثراً كان أو شعراً ـ بناءً على ما احتواه مضمونه وهذه الظاهرة تحدث بشتّى الدواعي في الكلام الأدبي لاسيما في الشعر على أساس ذوق المؤلف واختياراته.

وكاتب *منهاج البلغاء* يشير إلى هذا الموضوع ناقلاً عن الخليل: «**وقد قال الخليل بن أحمد: "الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنّى شاءوا. ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده ومد المقصور وقصر الممدود والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته واستخراج ما كلّت الألسن عن وصفه ونعته والأذهان عن فهمه وإيضاحه. فيقربون البعيد ويبعدون القريب ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ويصورون الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل**"» (المصدر نفسه، ص ٤٦).

٦. هل القلب من أساليب البلاغة

على الرغم من أننا نشاهد نماذج كثيرة من القلب في اللغة العربية هناك خلاف كثير نشب بين علماء النحو والبلاغة حول هذا السؤال: «هل القلب من أساليب البلاغة في اللغة العربية أو لا؟». يقبل بعض العلماء القلب كأسلوب بلاغي في حينٍ أن البعض

الآخر يصرّ على إنكاره إيّاه وعند مواجهة نماذج محتمل فيها وقوع القلب، يتمسكون بتبريرات مختلفة ردّاً لهذه الظاهرة. نرى أن الشنقيطي يشير إلى هذه الخلاف حيث يقول: «**وهذا القلب الذي يعنون هنا هو المعروف بالقلب العربي الذي فيه النزاع بين البلاغيين والنحويين كما هو معروف في محلّه، وهذا القلب أنكره جماعة من العلماء، وقال به جماعة. والحق أن هذا القلب العربي وإن أنكره البلاغيون وقالوا لا يجوز في العربية إلا إذا تضمن اعتبارًا لطيفًا، وسرّاً من أسرار اللغة العربية، وبغير ذلك لا يجوز. والنحويون يجيزه أكثرهم أنه أسلوب عربي إذا دلّ المقام عليه، وهو موجود في القرآن، وكثير في كلام العرب**» (الشنقيطي، ١٤٢٦، ج ٤، ص ٦٨).

وكذلك ابن عاشور عندما يقول: «**واختلفوا في عدّه من أفانين الكلام البليغ فعدّه منها أبوعبيدة والفارسي والسكاكي ولم يقبله الجمهور، وقال القزويني: إن تضمن اعتباراً لطيفاً قُبل وإلاّ رُدّ**» (ابن عاشور، ١٩٩٧، ج ٢٤، ص ١٥٨)، وابن هشام أيضاً جعله من فنون الكلام قائلاً: «**من فنون كلامهم القلب وأكثر وقوعه في الشعر**» (ابن هشام، ١٣٨٦ش، ج ٢، ص ٣٥٠). ومثلهما التهانوي في كتابه *موسوعة الكشاف* حيث يقول ناقلاً عن السكاكي: «**القلب مقبول مطلقا وهو ممّا يورث الكلام حسنا وملاحة ويسجع عليه كمال البلاغة وأمن الإلباس، ويأتي في المحاورات والأشعار والتنزيل، وردّه البعض مطلقا. والحقّ أنّه إن تضمّن اعتباراً لطيفاً قبل وإلا ردّ لأنّ نفس القلب من اللطائف كما جعله السكاكي**» (التهانوي، ١٩٩٦م، ج ٢، ص ١٣٣٧).

يمكن أن نقول في تلخيص هذه الأقوال: أن هناك جماعة من العلماء يردّون القلب في اللغة العربية بوصفه أسلوباً بلاغياً والأخرى يقبلونه عند أمن اللبس وهناك جماعة ثالثة تقبله عندما تضمّن اعتباراً لطيفاً وإلا تردّه.

٧. القلب وعيوب فصاحة الكلام

التعقيد المعنوي من عيوب فصاحة الكلام في اللغة العربية و«**هو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به، ظاهراً**» (مطلوب، ٢٠٠٧م، ص ٣٨٨). وبما أن القلب يوجب التغيير في أركان الكلام وإعرابها في الجملة يتبادر إلى أذهاننا أن تكون هذه الصناعة مُخلاّ للفصاحة ولكن الحق ـ كما رأينا في الأمثلة السابقة ـ هو أن بعض الشارحين والمفسّرين قاموا بشرح الأمثلة وتفسيرها شرحاً دقيقاً مع أنهم في بعض الأحيان لم يلتفتوا إلى احتمال وقوع القلب في الشاهد. وهذا دليل على أنه لو افترضنا وقوع القلب في الشواهد المذكورة، هذا القلب لم يؤدِّ إلى التباس المفهوم وأيضاً يمكننا القول بأن الانزياح ومخالفة القواعد المتفقة عليها والإبهام في الكلام من محسّناته ومعايير الجماليات فيه كما أثبته النقاد المعاصرون في دراساتهم الحديثة.

٨. الخاتمة

١. القلب ظاهرة شائعة في اللغة العربية وهو يعني تحويل الشيء عن وجهه ويحدث في مختلف مستويات اللغة من المستوى اللغوي والصرفي إلى المستوى النحوي والبلاغي. ولكن هذه الظاهرة يختلف مدلولها في تلك المستويات ويتسع نطاقها من انتقال حروف الكلمة إلى انتقال أركان الكلام الأصلية ومنشأ هذه الظاهرة هو فكرة الأصل والفرع في اللغة.

٢. بعد دراسة النصوص العربية ـ شعراً ونثراً ـ واجهنا مواضعَ مختلفة من القلب في علم المعاني وجعلناه على ثمانية أقسام: الفاعل (أو متعلَّقه) والمجرور، ونائب الفاعل والمجرور، والمفعول به والمجرور، والمبتدإ (أو ما كان أصله المبتدأ) والمجرور بالحرف أو المضاف، والمبتدإ (أو ما كان أصله المبتدأ) ومتعلَّق الخبر، والفاعل والمفعول به، والمعطوف والمعطوف عليه، والمقيَّد والقيد.

٣. مصطلح القلب يوجب تبادر عدة مصطلحات أخرى إلى أذهاننا وبإمكاننا تبيين العلاقة المنطقية بين القلب بهذه المصطلحات على النحو التالي: علاقة التباين بين القلب والتقديم والتأخير، علاقة العموم والخصوص من وجه بينه وبين الإسناد

المجازي، وعلاقة العموم والخصوص مطلقاً بينه وبين الانزياح، وعلاقة العموم والخصوص من وجه بينه وبين التشبيه المقلوب. نرى أنّ هذا المصطلح أحياناً يختلف عن سائر المصطلحات تماماً وأحياناً أخرى يشابهه إلى حدّ ما.

٤. بالنسبة إلى دواعي استخدام هذه الصناعة البلاغية علينا القول بأن أهمّ هذه الأسباب هو تحسين الكلام لفظياً ومعنوياً ومخالفة اللغة المعيارية وخلق الجوّ الشعري كما أشار السكاكي إلى هذه الدواعي بالإيجاز وهو كمال البلاغة في الكلام. ومن سائر الدواعي يمكننا الإشارة إلى الإغراق والمبالغة في الكلام والعبث الكلامي والاستهزاء والمحاكاة وسبق اللسان وضرورة الموسيقى لإقامة الوزن وإتمام القافية أو الفاصلة. وكما قلنا سابقاً إن لم يتضمّن القلب اعتباراً لطيفاً ولم يستخدم لإفادة إحدى هذه الدواعي فهو مردود في البلاغة.

٥. رأينا أن القرطاجني بوصفه عالماً من قدماء البلاغيين يقول بانحصار القلب في السماع، في حين أننا نعتقد أن الاعتقاد بهذه الفكرة خلافاً لآراء العلماء المتقدّمين حول انحصار القلب في السماع أو القياس لم يُقبل أبداً؛ لأنّ البحث عن السماع أو القياس يختصّ بعلم النحو دون البلاغة؛ والبلاغة هي على أساس الذوق ولذلك يمكن وقوع القلب في كلّ نتاج أدبي ـ من المنثور والمنظوم ـ بناءً على المضمون على أساس ذوق المؤلف واختياراته بدواعٍ مختلفة.

٦. على الرغم من شيوع القلب في اللغة العربية اختلف علماء هذه اللغة حول اعتباره كأسلوب من أساليب البلاغة. بعضهم ردّوا هذه الظاهرة تماماً وأنكروها والبعض الآخر ومنهم السكاكي اعترفوا بها إطلاقاً وهناك جماعة ثالثة تنتهج منهجاً وسطاً وتعتقد أن القلب في الكلام مقبول إذا تضمّن اعتباراً لطيفاً وإلا فهو مردود. ولكن الجدير بالذكر هو أن الاعتراف بوقوع هذه الظاهرة في اللغة العربية يصون الدارس عن التمسك بمختلف التأويلات والتقديرات البعيدة المتكلّفة عند مواجهته الشواهدَ المنظومة أو المنثورة ويساعده في فهمها.كذلك رأينا أن ردّ القلب كظاهرة بلاغية يجعل المفسّرين وبالتالي اللغويين أن يختلقوا معانٍ جديدة في اللغة وأن يأتوا بتقديرات فيها تكلّفات بعيدة عن عرف اللغة المعيارية.

٧. بما أن القلب يغيّر أركان الجملة إضافة إلى التغيير الذي يحدثه في إعرابها، يوهم أن هذا التغيير له تأثير في حدوث التعقيد المعنوي. هذا والحال أنه بناءً على التحوّل الذي شاع في عصرنا الراهن في معايير الجماليات، أصبح الانزياح والإبهام والتعقيد في الكلام من جملة محاسنه التي يستحسنها الإنسان المعاصر.

❁❁❁

المصادر والمراجع

❁ *القرآن الكريم*

١. الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن محمد. (١٤١٥هـ). ***إعراب القرآن***. (قدمت له ووثقت نصوصه: فائزة بنت عمر المؤيد). الرياض: د.ن (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية ـ الرياض).

٢. ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د.ت). ***الخصائص***. (تحقيق: محمد علي النجار). ٣ مج. بيروت: عالم الكتب.

٣. ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر. (١٩٩٧م). ***التحرير والتنوير***. ٣٠ ج. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.

٤. ابن فارس، أبو الحسن أحمد. (١٤١٨هـ). ***الصاحبي في فقه اللغة***. (تعليق: أحمد حسن بسج). بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية.

٥. ابن منظور، محمد بن مكرم. (د.ت). ***لسان العرب***. ١٥ جلد. بيروت: دار صادر.

٦. ابن هشام الأنصاري، جمال الدين بن يوسف. (١٣٨٦ش). ***مغني اللبيب عن كتب الأعاريب***. (تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد). ٢ جلد. طهران: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.

٧. أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف. (١٤١٨هـ). ***ارتشاف الضَرَب من لسان العرب***. (تحقيق: رجب عثمان محمد). ٥ مج. القاهرة: مكتبة الخانجي.

٨. امرؤ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن حارث الكندي. (١٤٢٥هـ). ***الديوان***. اعتني به: عبد الرحمن المصطاوي. بيروت: دار المعرفة.

٩. ـــــــــــــــــــ. (د.ت). ***تفسير البحر المحيط***. ٨ مج. بيروت: دار النشر ـ دار الفكر.

١٠. أنيس، إبراهيم وآخرون. (١٤٢٥هـ). ***المعجم الوسيط***. ط ٤. قاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

١١. التفتازاني، سعدالدين. (١٣٧٧ش). ***شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني***. ط ٩. قم: دار الحكمة.

١٢. التهانوي، محمد بن علي ابن الفاروقي. (١٩٩٦م). ***موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم***. مجلدان. (تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم). (تحقيق: علي دحروج). (نقل النص الفارسي إلي العربية: عبدالله الخالدي). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

١٣. الثعالبي، أبو منصور. (١٤٢٠هـ). ***فقه اللغة وأسرار العربية***. (تعليق: ياسين الأيوبي). ط ٢. بيروت: مكتبة العصرية.

١٤. الجندي، أحمد علم الدين. (١٩٨٣م). ***اللهجات العربية في التراث القسم الثاني النظام النحوي***. ليبيا: دار العربية للكتاب.

١٥. الحارث بن حلزة. (١٤١٥). ***ديوان الحارث بن حلزة***. (تحقيق: مروان العطية). دمشق: دار الهجرة.

١٦. حسن، السيد محمد بن السيد. (١٩٨٦م). ***الراموز علي الصحاح***. (تحقيق: محمد علي عبد الكريم الرديني). ط ٢. دمشق: دار النشر ـ دار أسامة.

١٧. الدسوقي، مصطفى محمد عرفة. (٢٠٠٨م). ***حاشية الدسوقي على مغني اللبيب عن كتب الأعاريب***. ٣ مج. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

١٨. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله. (١٣٧٦هـ). ***البرهان في علوم القرآن***. ٤ مج. (المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم). دمشق: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

١٩. الزوزني، أبي عبدالله الحسين بن أحمد. (١٤٢٥هـ). ***شرح المعلقات السبع***. (تقديم: عبدالرحمن المصطاوي). ط ٢. بيروت ـ لبنان: دار المعرفة.

٢٠. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر. (١٤٠٧هـ). ***مفتاح العلوم***. (ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور). ط ٢. بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية.

٢١. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن. (١٣٩٤هـ). ***الإتقان في علوم القرآن***. (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم). ٤ مجلدات. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٢. ـــــــــــــــــــ. (١٩٩٨م). ***المزهر في علوم اللغة وأنواعها***. (تحقيق: فؤاد علي منصور). مجلدان. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٣. ـــــــــــــــــــ. (١٤١٣هـ)، ***همع الهوامع في شرح جمع الجوامع***. (تحقيق: عبدالعال سالم مَكرم). ٦ مج. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٤. شبايك، عيد محمد. (١٤١٩هـ). ***القلب عند البلاغيين والنحاة العرب***. القاهرة: دار حراء.

٢٥. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر. (١٤٢٦هـ). ***العَذْبُ النَّمير من مجالس الشَّنْقيطيّ في التّفسير***. ٥ مج. ط ٢. (تحقيق: خالد بن عثمان السبت). مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٢٦. الشنقيطي، محمد بن أب القلاوي. (١٤٣١هـ). ***فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية***. مكة المكرمة: مكتبة الأسدي.

٢٧. الصافي، محمود بن عبد الرحيم. (١٤٣٨هـ). ***الجدول في إعراب القرآن الكريم***. ١٦ مجلدا. دمشق: دار الرشيد.

٢٨. الطبرسى، فضل بن حسن. (١٣٧٢شـ). ***مجمع البيان فى تفسير القرآن***. (تحقيق: محمد جواد بلاغي). ١٠ مج. ط ٣. تهران: ناصر خسرو.

٢٩. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن. (د. ت). ***التبيان في تفسير القرآن***. (تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي).١٠ مج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٣٠. العسكري، أبوهلال الحسن بن عبد الله. (١٤١٨هـ). ***الفروق اللغوية***. (تحقيق: محمد إبراهيم سليم). القاهرة: دار العلم للثقافة.

٣١. ـــــــــــــــــــــــــ. (١٤٢٨هـ). ***الوجوه والنظائر***. (حققه وعلق عليه: محمد عثمان). القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

٣٢. العياشي، المنذر. (٢٠٠٩م). ***الأسلوبية وتحليل الخطاب***. دمشق: دارالمحبة ـ دار الآية.

٣٣. القرطاجني، حازم. (د.ت). ***منهاج البلغاء وسراج الأدباء***. د.م: د.ن.

٣٤. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. (١٤٢٣هـ). ***الجامع لأحكام القرآن***. (المحقق: هشام سمير البخاري). الرياض: دار عالم الكتب.

٣٥. القزويني، الخطيب. (١٩٩٨م). ***الإيضاح في علوم البلاغة***. ط ٤. بيروت: دار إحياء العلوم.

٣٦. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد. (٢٠٠٣م). ***شرح ديوان الحماسة لأبي تمام***. ٤ مج. (تعليق: غريد الشيخ). بيروت ـ لبنان: دار الكتب العلمية.

٣٧. مطلوب، أحمد. (٢٠٠٧م). ***معجم المصطلحات البلاغية وتطورها***. ط ٢. بيروت ـ لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

٣٨. الميداني، عبدالرحمن حسن. (١٤١٦هـ). ***البلاغة العربية أسُسها وعلومها وفنونها***. مجلدان. دمشق: دار القلم.

٣٩. يحيى بن حمزة. (١٣٣٢هـ). ***كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز***. ٣ مج. مصر: مطبعة المقتطف.